١

تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء

رسالةٌ مفتوحةٌ للجبهةِ السلفيةِ وغيرهم

للشيخ

أبي حاتم محمد بن كمال السيوطي

تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ

رسالةٌ مفتوحةٌ للجبهةِ السلفيةِ وغيرهم

(١)

الحمد لله رب العالمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين

وبعد

فإن اجتماعَ الكلمةِ ، وائتلافَ الصفِّ ، من أعظمِ مقاصدِ الشريعةِ ، وقد قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين}
وقال تعالى : { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا }

فأمرَ بالاجتماعِ والائتلافِ ، ونهى عن التفرقِ والاختلافِ

وقالَ تعالى : {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

وهذا فيه وعيد شديد على التفرقِ والاختلافِ ، لما في ذلك من فسادِ الدينِ والدنيا ، وقد كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن التفرُقِ ولو لم يقصد صاحبُه ، كما في سنن أبي داودَ من حديثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ رضي الله عنه قَالَ : (كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْزِلًا تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ ، إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، حَتَّى يُقَالَ: لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ) فهذا حديثٌ عظيمٌ يدلُّكَ على عِظَمِ التفرقِ وخطورتهِ

، حيث نهي النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن التفرقِ بالأبدان ـ ولو كانت القلوبُ متآلفةً ـ وبيَّن أن مردَّ ذلك إلى فعلِ الشيطانِ ، وإنما كان ذلكَ كذلك لما يترتبُ على التفرُقِ والاختلافِ من الشرِّ العظيمِ ، والبلاءِ المستطيرِ ، وفي مسندِ أحمد من حديثِ النعمانِ بنِ بشيرٍ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : (الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ)

ولأجل ذلكَ يُستحبُ للمرءِ أن يتركَ ما يراه صواباً لجمعِ الكلمةِ ، ولكراهيةِ الخلافِ ، وما يترتبُ عليه من الشرِّ ، كما في الصحيحينِ عن عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ قال : (صَلَّى بِنَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمِنًى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ، فَقِيلَ: ذَلِكَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ ، وَصَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ ، فَلَيْتَ حَظِّي مِنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ رَكْعَتَانِ مُتَقَبَّلَتَانِ)

فقد بيَّن ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ السنةَ الثابتةَ من فعلِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وخليفتيه الراشدَين أبي بكرٍ وعمرٍ رضي الله عنهما هي قصرُ الصلاةِ الرباعيةِ في السفرِ ، وأنَّ إتمامَها مخالفةٌ لما تقدَّم من فعلهم ، ولذلك استرجعَ رضي الله عنه ومع ذلكَ ففي سنن أبي داودَ ، ومصنفِ ابن أبي شيبةَ : أنه صلَّى مع عثمانَ رضي الله عنهما أربعاً ، ولما سُئلَ عن ذلك علَّل بقولهِ (الخلافُ شرٌ)

قالَ شيخُ الإسلامِ في مجموعِ الفتاوى (٢٢/ ٤٣٦) (وَيَسُوغُ أَيْضًا أَنْ يَتْرُكَ الْإِنْسَانُ الْأَفْضَلَ لِتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ خَوْفًا مِنْ التَّنْفِيرِ عَمَّا يَصْلُحُ كَمَا تَرَكَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَاءَ الْبَيْتِ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ ؛ لِكَوْنِ قُرَيْشٍ كَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ وَخَشِيَ تَنْفِيرَهُمْ بِذَلِكَ وَرَأَى أَنَّ مَصْلَحَةَ الِاجْتِمَاعِ والائتلاف مُقَدَّمَةٌ عَلَى مَصْلَحَةِ الْبِنَاءِ عَلَى قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ – لَمَّا أَكْمَلَ الصَّلَاةَ خَلْفَ عُثْمَانَ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ – الْخِلَافُ شَرٌّ)

ولهذا كانت القلوبُ السليمةُ من داءِ الحقدِ ، وغائلةِ العداوة ، تجنحُ إلي جمعِ الكلمةِ ، ورأبِ الصدعِ ، ودفعِ الفُرقةِ بكلِّ وسيلةٍ مشروعةٍ ممكنةٍ ، وفي سننِ الترمذي وغيرِه من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قالَ : (ثلاثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ : إِخْلاَصُ العَمَلِ لِلَّهِ ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ)

(والغِّل) بكسر الغين ـ هو الحقدُ ، فقد بيَّنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بهذا الحديثِ أنَّ قلبَ المسلمِ لا يحملُ حقداً على هذه الخصال ، لأنها تجمعُ بين حقوق اللهِ وحقوق العبادِ ، فحقُّ الله إخلاصُ العمل له ، وعبادتُه وحده لا شريك له ، وأما العبادُ فهم قسمان رُعاةٌ ورعيةٌ ، فحقوقُ الرعاةِ مناصحتُهم ، وحقوقُ الرعيةِ لزومُ جماعتهم ، ولهذا أمرتْ الشريعةُ بلزومِ غرزِ الحاكمِ المسلمِ وعدمِ الخروجِ عليه ـ حتى ولو كانَ فاجراً ظالماً غشوماً ـ لمَا في الخروجِ عليه ما ينافي ما تقدَّمَ ذكرُه من النصوصِ الآمرةِ بالائتلافِ ، الناهيةِ عن التفرقِ والاختلافِ ففي الصحيحين من حديثِ عبادةَ بن الصامتِ رضي الله عنه قال : (دَعَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا : أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ

أَهْلَهُ ، قَالَ : إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)

فقولُه صلى الله عليه وسلم : (إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ) نصٌّ أنه لا يُنازَعُ بما دونَ الكفرِ مهما كانَ عظيماً ، وأدلُّ من هذا وأصرحُ ما خرَّجه مسلمٌ في صحيحه من حديثِ حذيفة بنِ اليمانِ رضي الله عنه :

(يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي ، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ ، قَالَ : قُلْتُ : كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ[١])

فهذا حديثٌ بيِّنُ الدلالة ، واضحُ المعنى ، ينهي عن الخروجِ على الأئمةِ مهما بلَغوا في بُعدِهم عن سنةِ النبي صلى الله عليه وسلم وهدْيهِ ، ومهما بلَغُوا من ظلمِ الناسِ ، والاعتداءِ عليهم

لكنَّ هذا الحديث مع وضوحه ، لم يلتزم به كثيرٌ من الناس قديما وحديثا ، وذلك لأمور منها :

الأول : تقديمُ الرأي على النصِّ

وهذا هو أوسع أودية الباطل ، وكم ضل بسببه من أذكياء العالم من ضل ، وقد حذَّر اللهُ عز وجل ونبيُّه صلى الله عليه وسلم من الولوج في هذا المضيقِ فقالَ تعالى : {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب: ٣٦]

---

[١] وهو حديث حسن بمجموع طرقه ولأخينا أبي حازم جزء حديثي في تقوية هذا الحديث والرد على من ضعفه

قال الحافظ ُابنُ كثيرٍ رحمه الله :(فهذه الآيةُ عامةٌ في جميعِ الأمورِ ، وذلك أنه إذا حكمَ اللهُ ورسولُه بشيءٍ ، فليس لأحدٍ مخالفتُه ولا اختيارَ لأحدٍ هاهنا ، ولا رأي ولا قولَ) قلت : وتأمَّلْ خاتمةَ الآية : { وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } أيْ ومَن يعص اللهَ ورسولَه بأنْ يقولَ مع قولهما أو يختارَ غيرَه { فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } أي واضحاً لا مِريةَ فيه

وقال تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

فلا يحلُّ لأحدٍ أنْ يتقدَّمَ بين يدي الله ورسولهِ ، فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يقولَ حتى يقولَ اللهُ ورسولُه ، ولا أنْ يفعلَ حتى يأذنَ اللهُ ورسولُه ، فإن الدِّينَ إنما يُتلقَّى عن الله ورسولهِ صلى الله عليه وسلم ، فما لم يكنْ من هذا السبيلِ فليسَ من الدينِ في شئ :وقال تعالى : { فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء:٦٥]

فقد بيَّنَ الله عزَّ وجلَّ في هذه الآيةِ أنَّ قدمَ الإيمانِ لا تثبتُ إلا على ظهرِ التسليمِ للهِ ورسولهِ ، وقوله تعالى :{ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } دليلٌ على أنَّ بعضَ النفوسِ تجدُ من الحرجِ من حكمِ اللهِ ورسولهِ ما تجدُ ، فليسَ كلُّ مَنْ قالَ آمنتُ صدقَ في قولهِ ، ولا كلُّ مَن ادَّعى التسليمَ كانَ مُسلِّمَا ، فإن هذه أمورٌ لا تظهرُ إلا عند الابتلاءِ ، واعتبرْ بما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ رضي الله عنهما :(أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شِرَاجِ الحَرَّةِ ، الَّتِي

يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ : سَرِّحِ المَاءَ يَمُرُّ ، فَأَبَى عَلَيْهِ ؟ فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلزُّبَيْرِ : اسْقِ يَا زُبَيْرُ ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ ، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ ، فَقَالَ: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ ، ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ})

فهذا رجلٌ كانَ قد آمنَ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم لكنْ لم ينشرحْ صدرُه لبعضِ أحكامهِ ، ولمْ يُسلِّمْ لها ، فخرج إلى ما خرجَ إليه من الضلالةِ ، فليكنْ هذا الحديثُ منك على ذُكرٍ ، واحذرْ أنْ تكونَ مثلَ هذا الرجلِ ، فليسَ الإيمانُ بالتمنى ، ولا بالتحلِّى ، وليس التسليمُ كلمةً تُقالُ ، ولا مَقالا يُدبَّجُ

وقد توعَّدَ اللهُ عز وجل المخالفينَ للنبي صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً فقالَ تعالى : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

فهذا يبيِّنُ لكَ أنَّ الجنةَ لا تُنالُ إلا بطاعةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم والانقيادِ لأمرِهِ ، وتركِ مخالفتهِ برأيٍ أو قياسٍ ، أو غيرِ ذلكَ ، وفي صحيحِ ابنِ حبانَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَدْخُلُنَّ الْجَنَّةَ كُلُّكُمْ إِلَّا مَنْ أَبَى وَشَرَدَ عَلَى اللَّهِ كَشِرَادِ الْبَعِيرِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَأْبَى أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ بن حبَّانَ : (طَاعَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِيَ الِانْقِيَادُ

لِسُنَّتِهِ بِتَرْكِ الْكَيْفِيَّةِ وَالْكَمِّيَّةِ فِيهَا ، مَعَ رَفْضِ قَوْلِ كُلِّ مَنْ قَالَ شَيْئًا فِي دِينِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِخِلَافِ سُنَّتِهِ دُونَ الِاحْتِيَالِ فِي دَفْعِ السُّنَنِ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْمُضْمَحِلَّةِ، وَالْمُخْتَرَعَاتِ الدَّاحِضَةِ)

وقال أبو عَلي الجوزاني فيما ذكره أبو محمد الدَّشتي في (النهي عن الرقصِ والسماعِ) : (أصحُّ الطّرقِ وأعمرُها وأبعدُها من الشّبَه اتِّبَاعُ الْكتابِ وَالسّنةِ قولا ، وفعلا ، وعَزما ، وعقدا وَنِيَّة ، لِأَن الله يَقُولُ { وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا } فقيلَ له : كَيفَ طَرِيق اتِّبَاع السّنة ؟ قَالَ : بمجانبة الْبدع ، وَاتِّبَاع مَا اجْتمع عَلَيْهِ الصَّدْر الأول من عُلَمَاء الْإِسْلَام وَأَهله ، والتباعد عَن مجَالِس الْكَلَام وأهله ، وَلُزُوم طَرِيقَة الِاقْتِدَاء والاتباع ، بذلك أُمرَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّم بقوله تَعَالَى : { ثمَّ أَوْحَينَا إِلَيْك أَن اتبع مِلَّة إبراهيم حَنِيفا })

قلت : فقد أُمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم باتِّباعِ ملةِ إبراهيمَ عليه السلام ـ وهو ما أُوحي إليه من ربهِ ـ ولم يُؤمرْ باتِّباعِ العقلِ والرأيِ ، هذا مع تمامِ رأي النبي صلى الله عليه وسلم ، ووفورِ عقلِه ، فكيفَ بغيرهِ ! وذلكَ لأنَّ ما يحبه اللهُ ورسولُه ، ويرضي به ، لا يُعرف إلا عن طريقِ الوحي ، وتأملْ قوله تعالى : {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)} والمعني : زادَهم ما قالَ الرسولُ هُدىً ، وأما أهلُ الرأي فزادَهم ضلالاً ، لأنهم لا يرون الهُدى إلا في عقولِهم وآرائِهم

قال الله تعالى : {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)}

فالسمعُ والطاعةُ للوحيينِ هو سبيلُ المؤمنينَ الصادقينَ ، فاتِّبع سبيلهم ، والزمْ غرزَهم تكنْ من المفلحينَ ، ويرحمُ الله أبا محمدٍ بن بدرانَ الدّشتي حينَ يقولُ :

من كان يرغبُ في النجاةِ فما له غيرَ اتباعِ الهاشميِّ مُحمدا
ذاك السبيلُ المستقيمُ وغيرُه سبلُ الضلالةِ والغوايةِ والردى